ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

معركة الرملة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م) حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (ت. ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م) من خلال كتابه البرق الشامي – دراسة تحليلية

د. سيبان حسن علي
كلية العلوم الإنسانية
جامعة دهوك
كردستان – جمهورية العراق

أ. د. كرفان محمد أحمد
أستاذ تاريخ الكرد في العصور الوسطى
كلية العلوم الإنسانية - جامعة دهوك
كردستان – جمهورية العراق

مُلَخّصْ

يهدف البحث إلى الوقوف بموضوعية على الرواية التاريخية المتعلقة بمعركة الرملة (سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م)، من خلال منظور ورؤية المؤرخ عماد الدين الأصفهاني، والتعريف بسير الاستعدادات التي اتخذها السلطان صلاح الدين للقيام بتلك الحملة، وما هي الاجراءات التي اتخذها للتوغل في أراضي الصليبيين داخل بلاد الشام، ومن ثَّم بيان الاستراتيجية التي اعتمدها أثناء تواجده مع الجيش الأيوبي في المناطق الصليبية، والعوامل التي تسببت في النهاية بهزيمة السلطان صلاح الدين في تلك المعركة. قسم البحث إلى مبحثين اثنين فضلاً عن المقدمة وتمهيد للموضوع مع الخاتمة، كرس التمهيد للحديث عن سيرة المؤرخ عماد الدين الأصفهاني، وحياته الاجتماعية، وعلاقته بالدولة الزنكية والأيوبية، مع الإشارة إلى أبرز مصنفاته التاريخية. أما المبحث الأول فقد خُصص للحديث عن تدوين العماد الأصفهاني للمعركة وركز فيها على استعدادات السلطان صلاح الدين الأيوبي لها، والاجراءات التي اتخذها لتجهيز الحملة، والتعليمات التي نشرها على العسكر قبل التوجه إلى بلاد الشام لمقارعة الصليبيين هناك. ركّز المبحث الثاني، على رواية العماد الأصفهاني للمعركة، حيث تم التأكيد فيها على خط سير السلطان صلاح الدين، ومهاجمته لعسقلان، ومن ثَّم الدوافع التي حملت جنده على التوغل إلى أرض العدو، كما تم الوقوف على أحداث معركة الرملة، والاشتباكات العسكرية التي حدثت بين الجانب الأيوبي والصليبي، وهزيمة السلطان في المعركة، وكيفية تمكنه من النجاة بنفسه مع مَنْ بقي معه من أفراد جيشه.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٢٦ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبول النشر: ٠٤ فبراير ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
معركة الرملة، عماد الدين الأصفهاني، السلطان صلاح الدين، التاريخ الوسيط

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051248

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
كرفان محمد أحمد، سيبان حسن علي. "معركة الرملة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م) حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (ت. ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م) من خلال كتابه البرق الشامي: دراسة تحليلية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثين: مارس ٢٠١٨. ص٤٢ – ٥١.

مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ معركة الرملة[1] واحدة من أشهر المعارك العسكرية في تاريخ الدولة الأيوبية وخلال حقبة الحروب الصليبية كونها الهزيمة الرسمية الأولى للسلطان صلاح الدين الايوبي على يد الصليبيين بصورة مباشرة في اشتباك عسكري، تلك الهزيمة التي غيرت بعد ذلك التفكير الاستراتيجي والحربي عند السلطان نحو مدايات وآفاق أكثر تطورًا، مستفيدًا من كل الظروف التي تحيط بتحركات العدو وطوبوغرافية المناطق التي حاول مهاجمتها لاحقًا، ولأهمية تلك المعركة وآثارها العسكرية والسياسية المرحلية على نفسية السلطان صلاح الدين، والعبرة الكبيرة التي استفاد منها السلطان في تحويل الهزيمة إلى نصر، وذلك وفق

رؤية أحد كُتَّاب الانشاء السلطاني من الذين رافقوا السلطان في حله وترحاله خلال المراحل الأولية للتهيؤ لتلك الحملة ألا وهو (عماد الدين الأصفهاني)، لذا تم اختيار موضوع (معركة الرملة حسب رواية عماد الدين الأصفهاني (ت.٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) من خلال كتابه البرق الشامي[٢]- دراسة تحليلية) عنوانًا لهذا البحث، معتمدًا منهجية تحليلية - نقدية، لرواية عماد الدين الأصفهاني وموازنة نصوصه بنصوص المؤرخين المسلمين الآخرين، والسريان الذين عاصروا الأحداث أو كانوا قريبين منها، وممَنْ أدركوا أحداث معركة الرملة، وتوضيح رؤيتهم التاريخية كل حسب روايته للحدث، وتعامله النصي معها، فضلاً عن تحليل ونقد بعض الأصول التي رافقت رواية عماد الدين، ومَنْ كتب عنها من المصنفين الآخرين.

اعتمد البحث على عدد من المصادر الأصلية تأتي في مقدمتها كتاب البرق الشامي لصاحب الترجمة، وكتاب تاريخ ميخائيل السرياني الكبير (ت.٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (ت.٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، وكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد (ت.٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وتاريخ الرهاوي المجهول (ت. ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (ت. ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م). كما تم الاستفادة من وجهات نظر وآراء عدد من الباحثين الجدد من أمثال، هاملتون جب، في كتابه "صلاح الدين الأيوبي: دراسات في التاريخ الإسلامي"، ونظير حسان سعداوي، "التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي"، وكتاب "الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين" لمؤلفه محسن محمد حسين، وغيرها من المصادر والمراجع تم تثبيت عناوينها في قائمة المصادر والمراجع الملحقة بالدراسة.

تمهيد: سيرة عماد الدين الأصفهاني

ولد عماد الدين محمد بن حامد بن ألـه[٣] المكنى بابي عبدالله في أصفهان سنة (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)،[٤] لذا عُرف بـ الأصفهاني، وغلب على شهرته اسم (العماد الكاتب الأصفهاني)،[٥] عاش وتربى في اسرة ميسورة الحال فقد كان والده من رجال الادارة والسياسة المشار اليهم بالخبرة والمعرفة في أصفهان، ولذلك طلب منه الخليفة العباسي الراشد بالله (ت. ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)، تولية الوزارة له؛ لكنه امتنع عن تلبية طلبه بحجة المرض.[٦] تلقى عماد الدين تعليمه الأولي في أصفهان، وبعد ذلك شد الرحال إلى أماكن ومناطق مختلفة بغية طلب العلم والاستفادة من علمائها وشيوخها، فسافر إلى بغداد سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩ م)، ودرس في النظامية[٧]، وأبدع في فن الترسل.[٨]

حصل في بغداد على بغيته من المعرفة التي تمكنه من مجاراة كبار علماء بلده اصفهان، فعاد إليها سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، وهناك ناظر الكثيرين منهم في مجالات شتى فذاعت شهرته بين أقرانه وبرز صيته إلى خارج أصفهان،[٩] ويبدو أنه كان يمتلك طموحًا كبيرًا في استغلال مواهبه والارتقاء بنفسه إلى وظائف ومناصب تليق بعلمه، فتقرب من الوزير ابن هبيرة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)[١٠]، فاسند إليه وظيفة النظارة في مدينة واسط، وبعدما اثبت كفاءته ورأى من أمانته وعلمه، جعله نائبًا عنه في البصرة سنة (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م).[١١]

عندما اغتيل ابن هبيرة مسمومًا، تعرض أغلب مناصريه للسجن والتعذيب، وكان من بينهم عماد الدين الأصفهاني، إذ سُجن واسيئت معاملته، حتى أُطلق سراحه بأمر من الخليفة، بعد محاولات عدة في التماس الرحمة منه [١٢]، فأبى البقاء في بلد لم يقدره، فأثر الهجرة إلى بلاد الشام، فوصل إلى دمشق سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)[١٣]، وقدم له القاضي كمال الدين الشهروزي[١٤] المساعدة اللازمة، للخروج من أزمته النفسية والاقتصادية تلك، وعينه مدرسًا في المدرسة النورية[١٥]، واتصل بعد مدة قصيرة بنور الدين زنكي فجعله هذا ضمن هيئة كُتاب إنشائه، وأُعجب بكتاباته ولا سيما أنه كان بارعًا في الإنشاء باللغتين العربية والفارسية[١٦]، ولما توثقت العلاقة بين السلطان وعماد الدين ورأى من مواهبه الكثير، أرسله في سفارات عدة إلى خلاط سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، وبغداد سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م).[١٧] وبعد سنة واحدة أسند إليه نور الدين زنكي التدريس في المدرسة النورية التي اشتهرت فيما بعد باسمه (العمادية)، وفي سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، جعله المشرف العام على ديوان الإنشاء في الدولة.[١٨]

عندما توفي نور الدين محمود أهمل الملك الصالح إسماعيل (ت. ٥٧٧هـ/ ١١٨١م) كل علاقة به وعزله عن وظيفته[١٩]، فاضطر إلى ترك دمشق والعودة إلى الموصل وبقي فيها حتى سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٣م)،[٢٠] حيث سمع بوجود صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام، وكانت بينهما معرفة سابقة، فاتصل به والتقاه عند حمص التي فتحها في السنة المذكورة، فاعجب ببلاغته وبتوصية من القاضي الفاضل (ت. ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)[٢١] الحقه بهيئة كتابه[٢٢]، وبدعم من القاضي الفاضل أصبح من كُتَّاب إنشاء السلطان الأساسيين، وشارك معه في معظم غزواته إلا (الرملة [٢٣]- موضوع الدراسة - فتح عسقلان ومحاصرة القدس[٢٤])، لكنه تمكن من اللحاق بالسلطان عند فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).[٢٥]

بعد وفاة السلطان صلاح الدين تناقلت به الأحوال بين السلب والإيجاب بفعل التناحر الأسري بين أبناء البيت الأيوبي، وتنقل لأكثر من مرة بين دمشق والقاهرة حتى استقر به الحال في دمشق سنة (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) [٢٦]، وبعد حياة حافلة بالترحال وطلب العلم ومواكبة كل من السلطانين نور الدين وصلاح الدين في كتابة رسائلهما وتدوين انتصاراتهما على الصليبيين، وافاه الأجل في دمشق سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) [٢٧] بعد أن ترك العديد من المصنفات ومن أشهرها في التاريخ (البرق الشامي، نصرة الفطرة وعصرة القطرة، الفتح القسي في الفتح القدسي).[٢٨]

المبحث الأول: تدوين العماد الأصفهاني لمعركة الرملة

يُعَدّ عماد الدين الأصفهاني المصدر التاريخي الوحيد الذي سجل وبدقة تفاصيل استعدادات السلطان صلاح الدين الايوبي لغزوه لبلاد الشام في سنة (٥٧٣هـ/ ١١٧٥م)، لأنه كان ملازمًا ولا

سيما في المرحلة الأولى لتأهب السلطان للذهاب إلى بلاد الشام وشاهدًا عيانًا مباشرًا على تلك الأحداث [٢٩]؛ لكن الشيء الذي يدفعنا للتساؤل هنا هو أن العماد أورد فقط الدافع العام الذي حمل صلاح الدين على التوجه حينئذ لقتال صليبيي الشام دون الإشارة إلى خصوصية الحملة، حتى ابن الاثير الجزري (ت. ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) اكتفى بالقول "سار صلاح الدين بن أيوب من مصر إلى ساحل بلاد الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج"،[٣٠] في حين أننا نستطيع أن نؤسس رأيًا حول تحديد ذلك الدافع من خلال مؤرخ مسيحي معاصر لتلك الأحداث ألا وهو، وليم الصوري (ت. ٥٨٢هـ/ ١١٨٦ م)، فقد أشار بأن صليبيي الشام في تلك الآونة كانوا قد برزوا للاستيلاء على قلعة حارم[٣١]، التي تركها صلاح الدين للملك الصالح إسماعيل (ت. ٥٧٧هـ/ ١١٧٩م)، وفي الوقت نفسه كانت مسقط رأس ومنشأ خاله شهاب الدين الحارمي، فضلاً عن أن الصليبيين كانوا قد توغلوا داخل حدود أنطاكية وحاولوا الاستيلاء على بعض القلاع والحصون التي كانت قد استعادها السلطان خلال المدة (٥٧٠ – ٥٧٢هـ/ ١١٧٥ – ١١٧٧م) [٣٢]، وتلك الأخبار لما وصلت إلى صلاح الدين في مصر، أيقن بأن الصليبيين قد تركوا مدنًا ومساحات واسعة دون حماية كافية مما حدا به الأمر إلى الاستعداد بسرعة للاستفادة من غياب الحاميات الصليبية عن مواقعها وتحقيق بعض الانتصارات واستعادة بعض المواقع الاستراتيجية التي طالما كان الصليبيون يثيرون المشاكل من خلالها حول القلاع والحصون الإسلامية في بلاد الشام.

على أية حال؛ نستشعر من خلال نص للعماد بأن السلطان قد عزم الأمر لتلك الغزوة واتخذ قراره فقال: "وعاد السلطان إلى القاهرة، وأقام بها ظاهر السلطان باهر البرهان ثم تقاضته عزمته واهتمت بالغزاة همته وجد بالجهاد وجده وجهده... وعرضت عساكره وأعلنت شعائره."[٣٣] الصورة التي ينقلها لنا عماد الدين في تلك المرحلة تنم عن الكثير من الموضوعية والسرد الواقعي لحركة الأحداث التي تتسلسل بتراتبية متدرجة، فهو ينقل يوميات كل تنقلات السلطان بشيء من الاختصار الذي أملاه عليه الظرف الذي كان يسجل فيه العماد تلك اليوميات العسكرية، وعلى حد قول هاملتون جب، كان العماد في كتاباته عن تحركات السلطان العسكرية وتدوين ملاحظاته لا يختلف كثيرًا عن المراسل الحربي في نقل أخبار المعارك وتفاصيلها،[٣٤] وهو في الوقت نفسه يُعَدّ المرجع الأساسي لكل مَنْ أتى بعده من المؤرخين عند الإشارة إلى معركة الرملة، وحتى بعض المعاصرين له من أمثال ابن الأثير الجزري الذي تصرف في بعض نصوص العماد لتوافق أسلوبه وتوجهاته.[٣٥]

يذكر العماد بان السلطان قد خرج من القاهرة يوم (الجمعة ثالث جمادي الاولى)، سنة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨ م) [٣٦]، ثم وصل الى بلبيس[٣٧] حيث أقام هناك لمدة قصيرة ثم تحول منها الى وادي السدير[٣٨] فعسكر فيه، لينهي كل الاستعدادات اللازمة، في سبيل انجاح تلك المهمة، وكان قد خطط على إنهاء تلك الغزوة في عشرة أيام حسب ما نقله العماد بالقول: "وقد أزف الرحيل وفرض التعجيل واستصحب في الخيم الخفيف ورد الثقيل، ثم نودي: خذوا زاد عشرة أيام زيادة للاستظهار ولا عواز ذلك عند توسط ديار الكفار."[٣٩]

استقراء للنص السابق، نقف على ما يأتي:

- إن السلطان صلاح الدين أراد الاستفادة من الوقت فأصدر اوامره للعسكر بتسريع وانهاء الاستعدادات اللازمة للحملة.
- منع اصطحاب كل الآلات والادوات الثقيلة حتى لا يعيق نقلها سير الجيش من مصر إلى الشام.
- قدر مسألة التموين التي سيحتاجها الجندي في تلك الحملة حيث طلب من الجميع أن يحسبوا الاحتياج الشخصي لعشرة أيام على أكثر تقدير، حتى يصلوا بسلام إلى الوجهة التي حددها من بلاد الصليبيين.

بالتالي كان قد جعل في استراتيجيته أنه سيضمن الحصول على كل النقص البشري والاقتصادي من بلاد الشام عندما يسترد القلاع والحصون الاسلامية هناك، وكان يعقد الآمال على أن تسير خطته تلك بسهولة، وأن يستفيد من الموارد البشرية في بلاد الشام. المشكلة الأخرى التي يواجها الباحث في مسألة الحملة الصلاحية إلى بلاد الشام ومن ثَمَّ معركة الرملة، هي أن العماد، لا يهتم بإيراد عدد الجند الذين استصحبوا السلطان في تلك الحملة ويكتفي بالإشارة قائلاً: "وسار في جيش مجر لسبل الحياة هجر من سواد القتام في ليل..."،[٤٠] في حين يذكر ابن الاثير أيضًا نصًا لا يقل غموضًا عن نص العماد: "وجمع معه عساكره كثيرة وجنودًا غزيرة".[٤١] بينما يأتي وليم الصوري برواية أخرى نستشف منها المعاني الموجودة في نصي كل من العماد وابن الاثير، فقال ما نصه: "قام بحشد الحشود الكثيفة من العسكر من كل ناحية، وأمر بتجهيزهم أحسن جهاز جرت به العادة".[٤٢]

مما يلاحظ في النصوص السابقة؛ أنها متفقة كُليًا على أن السلطان قد أعد جيشًا كبيرًا ولكننا نجهل رقمه، عدا أننا نقف على رواية نادرة لمؤرخ مسلم وهو المؤلف المجهول أشار فيها بصورة تقريبية أو تخمينية إلى رقم الجند الذين كانوا مع السلطان في وقعة الرملة حيث قال ما نصه: "وكانوا زيادة على العشرين ألفًا"؛[٤٣] لكن مما يؤخذ على رواية الصوري، وبعيدًا عن كونه مسيحيًا ويمثل وجهة نظر الصليبيين، فإنه بالغ في تقدير عدد جيش صلاح الدين ووصفها بالكثافة، فضلاً عن أنه جانب الصواب عندما ذكر أن السلطان قد جمع الجند من كل المناطق التي كانت حكمه لحين تلك الفترة (٥٧٣هـ/ ١١٧٨م)، لأن الوقائع تؤكد أنه لم يجمع سوى ما كان متوفرًا من جيشه في مصر فقط، وحتى عن التجهيز الذي أشار إليه لم يكن دقيقًا، كون أن ذلك الجيش قد جهز على عجالة كبيرة، باعتبار أن السلطان حاول أن يستغل كل فرصة ممكنة لبلوغ أهدافه قبل عودة الجيوش الصليبية أو حامياتها إلى مدنهم التي انسحبوا منها جراء المشاركة في حصار حارم وغيرها من المدن والقلاع.

لكن من جانب آخر هناك روايتان سريانيتان تسلطان الضوء على عدد المقاتلين الذين جمعهم السلطان صلاح الدين لحملة الرملة، بشيء من التفصيل، فهذا ميخائيل السرياني (ت. ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)، قال ما نصه: "في تشرين الثاني ١٤٨٩ (٥٧٣هـ) خرج صلاح الدين من مصر- على رأس ٣٣ ألف من مرتدي الدروع إضافة إلى المشاة وسواهم، ومعه ٥٢ ألف جمل تحمل الذخيرة والارزاق"،[٤٤] في حين أشار الرهاوي المجهول، إلى أن صلاح الدين قد خرج من مصر "بباس عظيم، وافتخار مع قوات كثيرة قوامها ٣٣ ألف فارس مسلح، وأكثر من اثني عشر ألف راجل، مع جمال تحمل السلاح والمؤونة"،[٤٥] ونظرة تحليلية للأرقام التي اوردها كل من السرياني والرهاوي، تظهر مسالة المبالغة فيها واردة جدًا، بحكم أن العماد أشار ومن ثَمَّ ابن الاثير إلى أن السلطان قد جمع عسكرًا كبيرًا لكن الملاحظ في الأمر، الرواية المسيحية قد اعتادت أن تبالغ في الأمر لتظهر أي انكسار أو انتصار للصليبيين مدفوعًا بعد ذلك بقلة أو كثرة الجند الذين اعتمد السلطان عليهم في حملته ضدهم، فضلاً عن أن العماد قد بيَّن أن صلاح الدين رفض أن يصطحب الجيش معه أية مؤن أو أعتدة ثقيلة،[٤٦] ونحن نثق بتلك الرواية كونه كان شاهد عيان على استعدادات الجيش، وهو يناقض ما أعلنه السرياني في احصاءاته التي تفتقد إلى أي مصدر موثوق، وذكر بأن صلاح الدين قد جهز اثنين وخمسين ألف جمل لحمل المؤن والأرزاق.[٤٧]

وإذا كان الأمر كذلك، كيف كان سيصل بتلك السرعة إلى بلاد الشام والركب كله تقريبًا مؤلف من الجمال، في حين أننا نستشعر بأن ميخائيل السرياني على أغلب الظن قد نقل روايته المبالغة فيها من وليم الصوري وتصرف فيها حسب رغبته بدليل أن الصوري، كان قد أشار في نص له بأن صلاح الدين بسبب طول الطريق وتعقيداته تخلى عن الكثير من أسلحته وأغراضه المتنوعة، فقد ذكر قائلاً: "وتسنى له بعد اجتيازه التيه الكبير في مشقة أن يبلغ العريش القديمة التي أصبحت الآن مهجورة من الناس فترك بها بعض امتعته الثقيلة وطائفة من العسكر"،[٤٨] وكل تلك الإشارات من قبل المؤرخين الصليبيين على كبر حجم قوة السلطان لم يأت بشيء سوى لإبراز قوة الصليبيين بعد أن هزم السلطان لاحقًا، مع الملاحظة أنه لم يخطط للاستقرار في المناطق التي يغير عليها، بل كان الأمر كله أن يثبت للصليبيين بأنه على علم بتحركاتهم العسكرية هناك، وأنه لن يترك بلاد الشام دون اسناد،[٤٩] ولن يفسح المجال للصليبيين بالتحرك في أراض المسلمين دون أن يكون هناك مَنْ يردعهم، ويوصل رسالة لهم بأن مصر هي التي ستدافع عن بلاد الشام، ولن يمنح أية فرصة لهم للتفكير بغزوها آنيًا أو مستقبلاً وفي الوقت نفسه، إذا حقق تقدمه داخل الأراضي الصليبية نجاحًا؛ فلن يكون من المستبعد أن يفكر في مهاجمة بيت المقدس واستعادتها في حال لم يتمكن الصليبيون من العودة إليها من أنطاكية وحلب.

مهما يكن من أمر؛ فإن الصورة التي نقلها العماد هي الأقرب لسير الأحداث، ويؤكد على أن الحرب تؤثر في تبديل الأحوال الاقتصادية بدليل، أنه تم وضع سوق متنقل للعسكر لشراء احتياجاتهم الضرورية للحملة فذكر قائلاً: "فركبت إلى سوق العسكر للابتياع وقد أخذ السعر في الارتفاع والمطلوب غال والمعسكر منه خال،[٥٠] وهذا ما دفعه للتفكير جديًا في عدم المشاركة بتلك الحملة لعدم تمكنه من شراء ما يلزمه من المؤن والسلاح، بل على العكس من ذلك طلب من خادمه أن يبيع كل ما لديه من ممتلكات تخص القتال وبأسعار أتت عليه بالربح، فضلاً عن أنه احتج بأنه لم يكن من رجال السيف بل هو من أصحاب القلم[٥١]، وليس عليه نائبة إن لم يشترك في جيش السلطان، وعرض أمره على القاضي الفاضل، فأخبر الأخير السلطان برغبة العماد في عدم المشاركة، فوافق رأيه، مؤكدًا على أنه لم يغب عن حملات السلطان صلاح الدين سواها بصورة مباشرة.[٥٢]

بعد أن أكمل الجيش استعداداته تحرك نحو بلاد الشام لتحقيق الهدف الذي خرج من أجله، والشيء الذي ينبغي الوقوف عليه هنا، هو موارد العماد عن تلك الحملة ومعركة الرملة تحديدًا، فتنوعت تلك الموارد بين مصدرين اثنين على أغلب الظن، آلا وهما، مشاهداته العيانية، وهذه تشمل الرؤية والحضور الشخصي المباشر له مع السلطان في القاهرة وبلبيس وغيرها من المدن التي أشار إليها في روايته عن مرحلة تجهيز الجيش، حتى انفصاله عنه من بلبيس بعد أن يأس في تجهيز نفسه، واقتناعه بعدم تمكنه من مجاراة الجيش في حملة عسكرية تستوجب القتال المباشر مع العدو وهو في الأساس رجل قلم وكتابة.[٥٣] أما المصدر الثاني الذي اعتمده في تدوين أخباره عن معركة الرملة والتطورات التي سبقتها، فهي الروايات الشفوية، والوثائق الرسمية بصفة كتب السلطان إلى بعض القادة في كل من دمشق وغيرها بعد أن تم انقاذه من قبل القاضي الفاضل ورجوعه سالمًا إلى مصر.[٥٤]

المبحث الثاني: معركة الرملة وفق رواية العماد الأصفهاني

١/٢- مقدمات معركة الرملة:

النص الذي يقدمه لنا العماد الأصفهاني حول خط سير السلطان صلاح الدين الى بلاد الشام والتوغل داخل الأراضي الصليبية يختلف نوعًا ما عن الحبكة الدرامية للرواية التاريخية من التي نسجها أقلام المؤرخين الصليبيين، فالعماد تختفي رواياته المعتمدة على مشاهداته العيانية منذ تركه للسلطان في وادي السدير، ليبدأ بالاعتماد على الروايات الشفوية التي استقاها بعد ذلك من المشاركين في المعركة أو الرسل الذين التقى بهم في القاهرة على أثر نقلهم لأخبار نجاة السلطان من الوقوع في أسر الصليبيين[٥٥]، فيذكر العماد بأن السلطان وصل بجيشه إلى عسقلان ومن هناك بدأ يخطط للهجوم على المعاقل الصليبية[٥٦]، وهي الرواية التي نقلها عنه معظم المؤرخين المسلمين الآخرين مثل ابن الأثير[٥٧]، ابن شداد[٥٨]، أبو شامة[٥٩]، ابن واصل [٦٠]، في حين تختلف الرواية الصليبية عنها فيذكر وليم الصوري، بأن السلطان وجيشه هاجموا الداروم،[٦١] وغزة[٦٢] قبل التفكير في

مهاجمة عسقلان وغيرها من المناطق،[٦٣] بينما أغفل العماد أية إشارة إلى مرور السلطان بتلك المناطق.[٦٤]

الرواية الأكثر جذبًا للتحليل هي التي سجلها ميخائيل السرياني، وتُعَدّ غريبة في محتواها النصي- عندما قال حرفيًا: "ودخل القدس مدفوعًا بغيرة عمياء وقتل أول افرنجي قبض عليه ولطخ ثيابه بدمه فتطهر، وفي الوقت الذي فقد الجميع الأمل أشفق الرب على المسيحيين"،[٦٥] استنباطًا لرؤية السرياني في النص المذكور نقف على ما يأتي:

- حاول ميخائيل السرياني أن يظهر السلطان بمظهر المسلم المتعصب الذي لم يقصر في بذل الجهد من أجل الانتقام.
- أراد استعطاف بقية المسيحيين والحذر من السلطان الأيوبي وعدم الالتفات إلى مبادراته السلمية كونه شخص دموي في التعامل مع الصليبيين بدليل إراقته لدماء أحد الجند المأسورين.
- الرواية السابقة موضوعة بدقة كبيرة من قبل السرياني لتحقيق أهدافه الكنسية، وهي لا تمت للواقع المعاش آنذاك بأية صلة، فالقدس لم تكن على مسار خط السلطان، وإنما كانت ضمن مخططاته اللاحقة بعد الانتهاء من عسقلان وبعض المدن والقلاع الأخرى.

رجوعًا إلى رواية العماد، نلاحظ أن السلطان صلاح الدين قد أرسل جيشه لمهاجمة بعض القرى والبلدات الموزعة في محيط عسقلان، هذا في وقت كان الملك بلدوين الرابع، يراقب تحركات السلطان بحذر شديد[٦٦]، فذكر العماد: "فسبى وسلب وغنم وغلب وأسر وفسر، وكسب وكسر وجمع هناك مَنْ كان معه من الأسارى، فضرب منهم الأعناق... وتفرق الفرق في الأعمال مغيرين ومبيدين".[٦٧]

بعدها تقدم السلطان لمحاصرة عسقلان يوم (التاسع والعشرين من جمادي الأولى) سنة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨)، في وقت كان الملك بلدوين قد تمكن من النزوح إليها وهذا مما ساعد حاميتها إلى تشديد المقاومة ضد المحاصرين[٦٨]، وبسبب تأخر الاستيلاء على عسقلان ترك السلطان صلاح الدين قوة عسكرية صغيرة بالقرب من عسقلان تقوم بمهمة منع دخول أو خروج أية قوة منها أو إليها، لكن تلك القوة لم تكن على مستوى المسؤولية، فقد تمكن الملك بلدوين الرابع من الإفلات بجيشه إلى خارج المدينة، ومن ثَمَّ حاول الاتصال بقوات صليبية أخرى ولا سيما جيش الأمير أرناط (رينالد دي شاتيون)[٦٩]، حيث ذكر ابن شداد بأن مقدم الصليبيين يوم الرملة كان (الأمير أرناط)[٧٠]، بينما أكد المؤلف المجهول على ذلك قائلاً: "وكان مقدم الفرنج أرناط وكان من أكبر ملوك الفرنج وكان نور الدين قد أسره في وقعة حارم"،[٧١] وحامية غزة، من أجل التجمع وتوحيد جهودهما لصد هجوم السلطان صلاح الدين، كل ذلك أتى بعد أن شردت قوات السلطان يمينًا ويسارًا في مهاجمة قرى وبلدات الصليبيين الموزعة في تلك المنطقة أملاً في الحصول على بعض الغنائم.[٧٢] وكان الصليبيون قد استخدموا استراتيجية الانسحاب الهادئ للمسيحيين من تلك المناطق، حتى تشير بعض الروايات أن سكان القدس أيضًا تجمعوا في أحد أبراج قلعتها تفاديًا لأية هجمة محتملة من قبل قوات السلطان صلاح الدين عليهم.[٧٣]

٢/٢- أحداث معركة الرملة:

يؤرخ العماد الأصفهاني، لبدايات معركة الرملة في أول يوم من شهر جمادي الاخرة قائلاً: "واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادي الاخرة بالرملة، راحلا، ليقصد بعض المعاقل منازلا"،[٧٤] وكعادته فان صاحب الترجمة لا يهتم بذكر التفاصيل المتعلقة بمن كان يقود الصليبيين من القادة والامراء، بل يهتم فقط بذكر ما اطلع عليه من الاخبار بشان تحركات السلطان صلاح الدين و جيشه ويتفنن في ترتيب الكلمات كعادة كاتب الانشاء ويترسل في تنظيم السجع المعقد للمعاني التي حاول أن يوصل مفهومه من خلاله لقرائه،[٧٥] لذا لم نر بدًا من الاعتماد على نص سرياني لوليم الصوري قد اثبت فيه أسماء الأمراء الصليبيين الذين رافقوا الملك بلدوين في التصدي لحملة السلطان صلاح الدين، فأشار إلى ذلك قائلاً: "وكان مع الملك بلدوين الرابع كل من ايود رئيس الفرسان الداوية وثمانون من إخوانه والأمير رينو(يقصد ارناط) وبلدوين صاحب الرملة وأخيه بليان ورينو الصيداوي وكونت جوسلين خال الملك ... وكان مجموعهم بما فيهم أصحاب الرتب الحربية ثلاثمائة وخمسًا وسبعين"،[٧٦] ويسترشد الجميع بالصليب الذي كان يحمله الأسقف البرت بطريرك بيت لحم، ومما يلاحظ على رواية الصوري المبالغة المفرطة في تضخيم شجاعة الصليبيين المستندة إلى عدد قليل من الجند والأمراء وأصحاب الرتب، بحيث ستتمكن تلك القوة الصغيرة من هزيمة أكثر من عشرين ألفا من الجيش الأيوبي المدربين على أفضل صنوف القتال[٧٧]. ولكنه يؤطر روايته بالعناية الالهية التي كانت تحمي المسيحيين، بفضل الصليب الذي كان يتقدم جندهم المتوجه لقتال السلطان وجيشه، حسب رؤيته.[٧٨]

أشار العماد إلى أن السلطان عندما وصل الرملة، كانت معظم قوات السلطان قد توزعت في الأرجاء، وأن الجند الذين جمعهم السلطان كانت محملة بأثقال الغنائم الكثيرة[٧٩]، لذا فمسألة التحرك السريع لم يكن واردًا آنذاك بسبب تلك الأحمال التي حاول الجند نقلها مع سيرهم في الرتل العسكري، والشيء الذي لم يكن في حسبان السلطان صلاح الدين أنه قد تحدث له مفاجآت غير متوقعة، لكن حدث ما لم يتوقعه كما قال العماد: "فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت على العبور أثقال العسكر المتوافية"،[٨٠] وكعادته لا يفصل العماد كثيرًا في تصوير سير أحداث المعركة كمؤرخ، بل ينقل الحدث من خلال رؤية كاتب الانشاء بتزويق الحدث لفظيًا، مع تضخيم أمور المعركة وإحاطتها بهالة من الحركة اللفظية، وعلى الأكثر هذا راجع إلى أنه عندما ينقل الحدث شفويًا من شهود آخرين، فلا نجد الرؤية التاريخية عنده واضحة كما هو الحال عندما كان هو الشاهد العياني للحدث، وعلى الرغم من كل ذلك فهو يؤكد بأن الصليبيين كانوا يترقبون تنقلات السلطان العسكرية والوضع الحرج الذي وضع نفسه به من خلال محاولته دفع الجند لعبور نهر الصافية، وهي النقطة الأكثر انحدارًا ومساحة السير ضيقة

جدًا، مما أربك عملية التغيير الموضعي بالسرعة الكافية، فاستغل الصليبيون هذا الأمر، وهجموا على قوات السلطان الذي لم يكن قد استعد جيدًا لتلك المفاجأة،[٨١] لا يشير العماد إلى أي اسم من أسماء القادة الصليبيين الذين قاتلوا السلطان في تلك المعركة، وإن كانت أغلب المصادر الإسلامية الأخرى تؤكد على أن مقدم عسكرهم كان أرناط (رينالد دي شاتيون)[٨٢]، في حين أن المصادر المسيحية تتفق على أن ملك بيت المقدس بلدوين الرابع ابن الملك املريك (عموري) هو الذي كان يقود المعركة[٨٣]، ومن الواضح أن الرؤية المسيحية تحاول أن تسند أي انتصار إلى الشخص الأول في المملكة كونه هو الراعي الأول للدولة والكنيسة.

على أية حال، وفق رواية العماد فإن جيش السلطان صلاح الدين قد دافع وبقوة، وحاولت كتائبه منازلة الصليبيين دون ملل حتى أنه أثنى على جهود الملك المظفر تقي الدين عمر[٨٤] ابن اخ السلطان، في القتال بصورة ملفتة للنظر، ولا سيما أنه كان قد أشرك معه في المعركة أحد أبنائه وهو الشاب أحمد، فيقول العماد عن دورهما في المعركة ويصف استشهاد أبنه أيضًا قائلاً: "فوقف الملك المظفر تقي الدين وتلقاهم بصدره وباشرهم بيصه وسمره وباشر الراجل بنيران سيوفه وصدهم عن الحملات بنيران وقوفه ثم حمل على الخيالة بخيله، فاستشهد من اصحابه عدة من الكرام... وكان لتقي الدين ولد يقال له أحمد، شاب أول ما طر شاربه ومضت مضاربه... فقال يا ولدي قد جاءت نوبتك فأين سطوتك؟... فحمل وبلغ الطعان، وراع تلك الرعان، وأردى فارسًا بردنيته وفرسه، وصد العدو وحبسه، وخرج سالمًا إلى أبيه... فقال له عد يا أحمد فالعود احمد ... فاذنت تلك الحملة الثانية، بكسوف شمسه".[٨٥] وبسب شجاعة تقي الدين في تلك المعركة واستشهاد ولده، نظم عماد الدين الأصفهاني قصيدة عن بسالته ودوره في تلك المعركة تثمينًا لجهوده غير الاعتيادية التي أظهرها في نوبة الرملة.[٨٦]

يستطرد العماد في نقل احداث المعركة مشيرا الى ان السلطان كان في وضع لا يحسد عليه من الضعف، وعدم الثقة من استطاعته ان ينجو ببقية قواته من تلك المعركة التي دخل فيها الصليبيون بكل قوة، وفي نيتهم ابادة الجيش الايوبي، والقضاء على السلطان نفسه، لكنه معتمدًا على رواية شفوية من الدرجة الاولى كان قد سمعها مباشرة من السلطان أكد على أن بعض الفرسان ممَنْ تميزوا بالشجاعة والاقدام قد أحاطوا بالسلطان وبدوا يدافعون عنه بكل بسالة مانعين الصليبيين من الوصول إليه الذين جعلوا كل هدفهم الأساسي قتل السلطان فنقل لنا نصا على لسان السلطان صلاح الدين قائلاً: "رأيت فارسًا يحث نحوي حصانه، وصوب الى نحري سنانه، وكاد يبلغني طعانه، ومعه اخران قد جعلا شأنهم شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي، خرج كل واحد منهم إلى كل واحد منهم، بادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، ... وفضل الفيضي ... وسويد بن غشم المصري، فهؤلاء كانوا فرسان العسكر، وشجعان المعشر ... رافقوه وما فارقوه وقارعوا العدو دونه وضايقوه".[٨٧]

على الرغم من الشجاعة والقتال من غير ملل من قبل ما تبقى مع السلطان من جند، إلا أن الهزيمة حلت بالجيش الأيوبي، ويفهم من رواية العماد، أن تفرق الجيش قبل المعركة في المناطق الصليبية للاستحواذ على الغنائم أولاً، ومن ثَمَّ رجوع بعض الجند إلى السلطان وهم محملين بأثقال الغنائم، كل ذلك منعهم من القتال والحركة كما ينبغي في مثل تلك الأحوال، فحلت الهزيمة بهم، وإن كانت الرواية الصليبية ترجع هزيمة السلطان إلى ما يأتي:

- الوحدة التي ظهرت بين الصليبيين، حيث أيقنوا أن هذه فرصتهم للتخلص بصورة نهائية من صلاح الدين وجنده، فنبذوا كل خلاف ووحدوا جهودهم لأجل تلك الغاية: "وتقدمت جموعهم هذه كلها في صفوف حربية تتحرق شوقًا لمصادمة العدو".[٨٨]
- تأثير الظروف الطبيعية على سير المعركة، مثل تغير الأحوال المناخية أو الطقس في ذلك اليوم، عندما تغيرت الأجواء من مشمسة إلى غائمة مع هبوب رياح قوية منعت جيش السلطان من الحركة في ذلك الممر الضيق على النهر، وقد ألبسوا تلك الظروف وتغيرها ثوبًا دينيًا، فقيل: "هيج الله عاصفة هوجاء حملت التراب من جانب الإفرنج وقذفت به على الأتراك فتحقق الإفرنج من أن الله قبل توبتهم، ففرحوا وتشجعوا وولى الأتراك الأدبار فطاردهم الإفرنج وهم يفتكون بهم طيلة النهار".[٨٩]
- أما ابن شداد وهو المعاصر للعماد، فينقل بدوره شفاهًا عن السلطان جزءًا من حقيقة السبب الذي كان قد أدى إلى الهزيمة في الرملة، فقال ما نصه: "ولقد حكى السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين، كانوا قد تعبوا تعبئة الحرب، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهة القلب، ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم، تل معروف بأرض الرملة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية، هجمهم الإفرنج، وقدر الله كسرتهم، فانكسروا كسرة عظيمة".[٩٠]
- ينفرد المقريزي، في الإشارة إلى أن بعض الجند الكرد كانوا هم السبب في تلك الهزيمة، فاكتفى بالقول: "وقطع أخباز جماعة من الأكراد، من أجل أنهم كانوا السبب في هذه الكسرة"،[٩١] ودون أن يبين ما هو الخطأ الذي ارتكبوه لتحل الهزيمة بالجيش كله، هل أنهم مَنْ حاولوا تغيير أماكنهم، أم أنهم احتجوا بنقل أحمال الخيول إلى الضفة الأخرى للنهر، أم أنهم لم يلتزموا بأوامر السلطان صلاح الدين.

جدير بالقول؛ أن تلك الهزيمة دفعت بميخائيل السرياني، إلى السخرية من السلطان وجنده، فذكر بأنه عاد إلى مصر متأثرًا بتلك الهزيمة ولبس الجميع الأسود كتعبير عن الحزن والحداد[٩٢]، ولم يشذ عنه وليم الصوري في التعبير عنها بالمذبحة الفظيعة؛[٩٣] كون أن معظم مَنْ كان مع السلطان إما قتلوا أو أسروا، وفي الوقت نفسه ذكر بأنه أحصى عدد مَنْ كان مع السلطان صلاح

الدين، من الجند ويأتي بأرقام تنم على الكثير من المبالغة، فقال: "إن الذين اقتحموا أرضنا كانوا ستة وعشرين ألف فارس من حملة السلاح الخفيف بالإضافة إلى راكبي الإبل ودواب الحمل، وكان من هؤلاء ثمانية آلاف من الجند العظام الذين يسمونهم في لغتهم بالطواشية.[٩٤] أما الثماني عشرة آلاف الأخرون فكانوا من الفرسان العاديين المعروفين بالقراغلامية،[٩٥] وكان هناك ألف من أبسل الفرسان يعملون حرسًا خاصًا لصلاح الدين ويلبسون الحرير الأصفر ويضعون الزرديات على صدورهم من نفس اللون الذي يلبسه صلاح الدين"،[٩٦] من جانب آخر، لا نجد مثل تلك الرواية عند العماد الذي اِكتفى بعد هزيمة الجيش الأيوبي، إلى وصف حالة السلطان، فيذكر بأنه تمكن من النجاة بنفسه من أرض المعركة ومعه قلة قليلة من الجند وكان بين كل مرحلة وأخرى يتوقف عسى أن يلحق به مَنْ تمكن من الفرار من قبضة العدو، وهو في حالة يُرثى لها بعد أن فقد ما كان معه من الطعام والماء، وتمكن من الاختباء عن أنظار العدو بعد أن دخل الليل عليه،[٩٧] وتجدر الإشارة إلى؛ أن القاضي الفاضل كان قد خرج مع بعض العرب من الكنانية[٩٨] والأدلاء للبحث عن السلطان وتمكن من العثور عليه وعلى أصحابه، فقدم لهم ما كانوا يحتاجون إليه من الملبس والمأكل، وانقذوا.[٩٩]

أما حال بقية الجند ممَنْ كان مع السلطان، فذكر العماد، بأن البعض منهم من أمثال الفقيه عيسى الهكاري[١٠٠]، وأخيه ظهير الدين الهكاري، مع عدد آخر من الجند كانوا قد أضاعوا الطريق وحاولوا الاختباء في بعض الكهوف، لكن بعض أهالي المنطقة قد دل عليهم الصليبيين فأسروا "وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنتين بستين أو سبعين ألف دينار وفكاك جماعة من الكفار عنده من اسار"،[١٠١] وممَنْ أسر أيضًا ابن أخر لتقي الدين عمر كان يسمى "شاهنشاه"، بقي في أسر الصليبيين حوالي ستة أعوام.[١٠٢]

ويذكر العماد بأن أول ما فعله السلطان بعد الانقاذ، أنه أرسل خبر سلامته إلى القاهرة مع بعض النجابين[١٠٣] "وإذا هم يقولون، أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون وأنهم واصلون غانمون، فقلت لرفيقي: ما بشر بسلامة السلطان إلا وقد تمت كسرة وما ثم سلامته نصرة، وكان كما حررته"،[١٠٤] ثم عاد السلطان مع بقية العسكر ممَنْ تمكن من النجاة بنفسه من الصليبيين في معركة الرملة إلى القاهرة، يوم الخميس منتصف الشهر، سنة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٨م). وأكد العماد بأنه بعد عودته أرسل العديد من الكتب والمناشير إلى الأمراء والقادة المسلمين في المدن الأخرى تطمينًا لهم على حالته ومفسرًا كيفية الهزيمة، وحثهم على الصمود، وأن تلك الهزيمة لن تؤدي إلا إلى زيادة حماسه وحماس الجند الآخرين في قتال الصليبيين في قوادم الأيام "والغزوات تتصل ولا تنقطع والطلبات للعدو بإذن الله تسهل ولا تمتنع وراية هذا الدين ترتفع ولا تنخفض".[١٠٥]

وعلى حد قول نيوباي فإن جيش صلاح الدين هزم في تلك المعركة لكنه لم يتحطم، وذلك في إشارة إلى أن السلطان صلاح الدين عاد أقوى بعد تلك الهزيمة.[١٠٦] بل إن بعض الشعراء قد نظموا قصائد شعر تمجد توغله المنتصر في عسقلان في محاولة لتهوين أمر هزيمة الرملة، مثلما فعل "ابن سعدان الحلبي".[١٠٧] ولكي يجبر السلطان كسر الخواطر، بعدما أصيب الجند بالانكسار، وخوفًا من دب اليأس في صفوفهم، وأن يفقدوا معنوياتهم، وزع عليهم الأموال، وأوصلهم بالهدايا، وعوضهم عما فقدوا من دوابهم وأسلحتهم في أرض المعركة، وطيب قلوبهم كما ينبغي.[١٠٨]

خَاتِمَةٌ

في خاتمة هذه الدراسة تم تثبيت النتائج التالية:

- اتبع عماد الدين الأصفهاني طريقة كتاب الانشاء في تدوين الروايات المتعلقة بمعركة الرملة من خلال الاِهتمام بجمال اللفظ وتنسيق الحرف دون الاِهتمام كثيرًا برواية الحدث مثل بقية المؤرخين.
- لاحظنا بأن العماد قد ضبط توريخ الحدث رقميًا من خلال التأكيد على تثبيت تواريخ حركات السلطان وخطوات عملياته العسكرية بإيراد التاريخ الهجري مفصلاً في أغلب الأحيان.
- اثبتت الدراسة بأن العماد حاول قدر المستطاع أن يوصل النص التاريخي المتعلق بمعركة الرملة بشيء من الموضوعية، والابتعاد عن المبالغات التاريخية، وما لم يتمكن التعرف عليه من إحصاءات الأرقام، لم يحاول أن يخلق أرقامًا خيالية، لا تتطابق مع الواقع كما فعل البعض من المؤرخين المسيحيين.
- من خلال روايات العماد لوحظ بأن من أسباب هزيمة السلطان صلاح الدين في معركة الرملة، هي عدم معرفة السلطان بجغرافية المنطقة بصورة كبيرة، فضلاً عن أنه لم يعتمد في تلك الحملة على مَنْ لهم الخبرة الجغرافية في معرفة المعالم الأساسية هناك.
- ظهر من خلال الدراسة، أن الثقة الزائدة التي منحها السلطان لجيشه، وعدم تمكنه من ضبط الجند كما يجب، دفعتهم إلى الاِنسياح بأنفسهم إلى الداخل الصليبي، سعيًا وراء جمع أكبر كمية من الغنائم، مما سبب ذلك انقطاعًا كبيرًا بين مركز القيادة، وبقية العسكر فحتى عندما اِحتاج إليهم السلطان لم يتمكن سوى جزء من الجيش اللحاق بهم وهم في حالة من الفوضى.
- الشيء الملفت للنظر أن معظم مَنْ حددوا أسباب هزيمة السلطان تناسوا، بأن مسألة التعب والارهاق الذي لحق بجند السلطان، خلال مسيرهم الطويل من مصر إلى فلسطين، قد أثر كثيرًا على حركة الجيش، فضلاً عن أن توغلهم غير المدروس في الأراضي الصليبية زاد من ذلك الإرهاق أضعافًا كثيرة، فعندما واجهوا الصليبيين، وبعيدا عما كانوا يحملونه من أثقال، فإن حركتهم وحركة خيولهم كانت من البطء بحيث لم يستطيعوا الإفلات من هجمات الصليبيين المباغتة.

- كما تبين أيضًا من رواية العماد وبقية المؤرخين ممَنْ تصدوا لمعركة الرملة، بأن الصليبيين كانوا قد أخذوا احتياطاتهم قبل دخول السلطان لأراضيهم، بل أنهم قد دفعوا الناس إلى ترك مناطقهم التي كانت على خط سير السلطان وجنده، فضلاً عن أن القوات الصليبية كانت في وضع نفسي ومعنوي أفضل، ناهيك عن أن قواتهم لم تكن تقل عن القوات الأيوبية عددًا وإن كانت المصادر المسيحية تحاول أن تنشر أرقامًا بعيدة عن الواقع التاريخي لأعداد جيشهم الذي قاده أكثر من عشرة من الأمراء والقادة المشهورين، عدا وجود الملك بلدوين الرابع على رأسهم، لأنه من غير المنطقي أن يشارك عدد من القادة على رأس حامية صغيرة أو فرقة لا تتجاوز الثلاثمائة جندي، لقتال أكثر من عشرين ألف مقاتل أيوبي.
- عدم اِلتزام الجند بأوامر السلطان خلال الاشتباك العسكري كان من أهم العوامل التي أدت إلى هزيمة الجيش الصلاحي، ووقوع عدد كبير من أمرائه وجنده أسرى في يد العدو، مما اِضطر إلى تحمل أعباء مالية كثيرة لفكاك الأسرى لاحقًا.

الهَوامِشُ:

(١) **الرملة**: مدينة كبيرة تقع في الداخل من أرض فلسطين، وكانت من المدن الاستراتيجية في حقبة الحروب الصليبية، تبعد بمسافة خمسة وعشرين ميلاً (١٥٠ كم) عن الشمال الشرقي من القدس، وهي مشهورة بمياهها ومواردها الزراعية ولا سيما (التين) الذي كان يصدر منها إلى بقية المدن والأقاليم، استعادها السلطان صلاح الدين من الصليبيين سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، ثم هدمها سنة (٥٨٧ هـ/ ١١٩١م)، تحسبًا لأي استيلاء عليها من قبلهم. للمزيد يُنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت: ١٩٩٧م)، ٤٢١/٤ – ٤٢٢؛ ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة: ١٩٦٤م)، ص٨٠؛ هونيكمان، مادة الرملة، **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرون، (بيروت: د/ م)، ١٩٣/١٠ – ١٩٦.

(٢) عن سيرة حياة ومنهج عماد الدين الأصفهاني وأسلوبه الكتابي ومصادره في البرق الشامي، يُنظر: حكيم أحمد مام بكر، **عماد الدين الكاتب الأصفهاني ومنهجه التاريخي من خلال كتابه البرق الشامي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صلاح الدين – اربيل، (اربيل: ١٩٩٦ م)، ص ١٨ – ٤٩، ٥١ – ٨٠.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (بيروت: ١٩٨٠)، ١٩ / ١١.

(٤) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: ٢٠٠٠)، ١١٩/١.

(٥) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ١٩ / ١١؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، (بيروت:١٩٩٣م)، ٥٨/٣.

(٦) عماد الدين الأصفهاني الكاتب، **خريدة العصر وجريدة القصر**، تحقيق: محمد بهجت الأثري، قسم العراق، (بغداد :١٩٥٥ م)، ٣ / ٣٣ – ٣٤.

(٧) عن المدرسة النظامية يُنظر: مريزن سعيد مريزن العسيري، **الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي**، (مكة المكرمة: ١٩٨٧م)، ص ٢٦٣-٢٨٥؛ مصطفى جواد، "**المدرسة النظامية ببغداد**"، مجلة سومر، (بغداد:١٩٥٣م)، مج٩-ج٢، ص٣١٧-٣٢٤.

(٨) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، (بيروت: ١٩٩٢ م)، ٢١ / ٣٤٥؛ كحالة، معجم المؤلفين، ٥٨/٣.

(٩) عماد الدين الأصفهاني، **ديوان عماد الدين الأصفهاني**، تحقيق ناظم رشيد، (الموصل: ١٩٨٣م)، مقدمة التحقيق، ص ٥ – ٦.

(١٠) حول ترجمة ابن هبيرة يُنظر: سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، (حيدر أباد:١٩٥١م)، ج٨ – ق٢، ص ٢٥٥-٢٦١؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان في إنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، (بيروت :١٩٦٨ م)، ٢٣٠/٦-٢٤٤

(١١) الأصفهاني، **خريدة القصر**، ٣/ ٣٦.

(١٢) المصدر نفسه، ٣/ ٥٦.

(١٣) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ١٩/ ١٢؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، (بيروت: ١٩٥٩م)، ٥/٦.

(١٤) **كمال الدين الشهرزوري**: هو أبو الفضل محمد بن عبد الله موصلي المولد والنشأة (٤٩٢-٥٧٢هـ / ١٠٩٨-١١٧٧م)، خدم عماد الدين زنكي حتى مقتله، بعدها قدم الشام فقربه نورالدين محمود وولاه منصب قاضي القضاة في دولته، وشغل المنصب ذاته في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي حتى وفاته (٥٧٢هـ/١١٧٢م). للمزيد عنه يُنظر: العماد الأصفهاني، **خريدة القصر(قسم شعراء الشام)**، تحقيق شكري فيصل، (دمشق:١٩٥٩م)، ٣٢٣/٢؛ الذهبي، **العبر في خبر مَنْ غبر**، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن زغلول، (بيروت:١٩٨٥م)، ٦٣/٣.

(١٥) حول المدرسة النورية يُنظر: النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، (بيروت: ١٩٩٠ م)، ١/ ٤٦٦-٤٩٨.

(١٦) ابن خلكان، المصدر السابق، ٥/ ١٤٨-١٤٩؛ نظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص٢٠.

(١٧) أبو شامة، **عيون الروضتين في أخبار الدولتين**، تحقيق أحمد البيومي، (دمشق: ١٩٩١م)، ص١٢٥.
(١٨) البنداري، **سنا البرق الشامي**، تحقيق رمضان ششن، (بيروت: د/ت)، ١٣١/١.
(١٩) أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم الزيبق، (بيروت: ١٩٩٧ م)، ٣ / ٢٢٤؛ بروكلمان، **تاريخ الأدب**، ٦-٥/٦.
(٢٠) ابن خلكان، المصدر السابق، ١٤٩/٥؛ يوسف درويش غوانمة، **إمارة الكرك الأيوبية**، (الكرك :١٩٨٠ م)، ص٢٠.
(٢١) عن سيرة القاضي الفاضل يُنظر: أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثراني، (بيروت: ١٩٧٤م)، ص١٧؛ هادية الدجاني شكيل، **القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته**، (فلسطين:١٩٩٩م)، ص٢٤-٨٢،٣٩-١٨٥،١١٣-٢٠٣، ٢٥٥-٣١٨.
(٢٢) البنداري، المصدر السابق، ١٨٥/١.
(٢٣) عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، تحقيق مصطفى الحياري، (عمان: ١٩٨٧م)، ٣ / ٣٣.
(٢٤) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ج٨ – ق٢، ص ٣٩٨.
(٢٥) عماد الدين الكاتب الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق محمد محمود صبح، (القاهرة:١٩٦٥م)، ص١٠٦؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق والجزء نفسه، ص٤٧٧؛ محسن محمد حسين، **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**، (اربيل:٢٠٠٣)، ص١٤؛ بينما توهم بروكلمان عندما ذكر بأنه رافق السلطان في كل حملاته، يُنظر: تاريخ الأدب، ٦/٦.
(٢٦) ابن الساعي الخازن، **الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير**، تحقيق مصطفى جواد، (بغداد :١٩٢٤م)، ٦٤/٩؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٣٤٩/٢١.
(٢٧) ابن خلكان، المصدر السابق، ٥ /١٥٠؛ الذهبي، المصدر السابق،٣٤٩/٢١.
(٢٨) البرق الشامي، تحقيق مصطفى الحياري، (عمان :١٩٨٧م)، ص٣١ - ٣٦؛ دريد عبدالقادر نوري، **سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة**، (بغداد: ١٩٧٦م)، ص١٧.
(٢٩) **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، (بيروت :٢٠١٢م)، ٤٢٨/٩.
(٣٠) **حارم**: مدينة وقلعة منيعة، تقع أمام أنطاكية، وهي مشهورة بمواردها، وكانت من أعمال حلب، للمزيد يُنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ٢٠٥/٢.
(٣١) **الحروب الصليبية**، ترجمة حسن حبشي، (القاهرة :١٩٩٥م)، ٤ /٢١٢ – ٢١٣.
(٣٢) البرق الشامي، ٣١/٣.
(٣٣) المصدر نفسه، ٣١،٣٢،٣٣،٣٤،٣٥/٣.
(٣٤) **صلاح الدين الأيوبي: دراسات في التاريخ الإسلامي**، حررها يوسف ايبش، (بيروت :١٩٧٣م)، ١٢٦-١٢٧.
(٣٥) يُنظر: **الكامل في التاريخ**، ٩ / ٤٢٨. ويوازن مع نصوص العماد في البرق، ٣/ ٣١-٤١.
(٣٦) البرق الشامي، ٣/ ٣٢.
(٣٧) **بلبيس**: العامة تسميها بلبَيس، بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ (٦٠) كم، على الطريق الموجه إلى بلاد الشام، يُنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٣٧٧/١.
(٣٨) **وادي السدير**: مستنقع للماء تفرغ فيه فضلات نهر النيل، يُنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ٣٢/٣.
(٣٩) **البرق الشامي**، ٣٢/٣.
(٤٠) المصدر نفسه، ٣٦/٣.
(٤١) **الكامل في التاريخ**، ٤٢٨/٩.
(٤٢) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤ / ٢١٣.
(٤٣) **تاريخ دولة الأكراد والأتراك** (تاريخ دولة الأكراد)، تحقيق: موسى مصطفى الهسنياني، (دهوك: ٢٠١٠)، ص١٠٣.
(٤٤) **تاريخ مارميخائيل السرياني الكبير**، عربه عن السريانية، مارغريغوريوس صليبا شمعون، (دمشق:١٩٩٦م)، ٣/ ٣٣٩.
(٤٥) **تاريخ الرهاوي المجهول**، عربه عن السريانية البير أبونا، (بغداد: ١٩٨٦م)، ٢١٧/٢.
(٤٦) البرق الشامي، ٣/ ٣٢.
(٤٧) تاريخ مار ميخائيل، ٣/ ٣٢٩.
(٤٨) تاريخ الحروب الصليبية، ٤/ ٢١٣.
(٤٩) محمد سهيل طقوش، **تاريخ الحروب الصليبية**، (بيروت:٢٠١١م)، ص٤٥١-٤٥٢؛ عرب دعكور، **قيام الدولة الأيوبية**، (بيروت:٢٠١١م)، ص ١٦٦-١٦٧.
(٥٠) البرق الشامي، ٣٢/٣.
(٥١) المصدر نفسه، ٣/ ٣٢.
(٥٢) المصدر نفسه، ٣٣/٣.
(٥٣) المصدر نفسه، ٣/ ٣١-٣٦.
(٥٤) المصدر نفسه، ٣/ ٤٢-٤٥.
(٥٥) المصدر نفسه، ٣/ ٤٢.
(٥٦) هناك اختلاف بين رواية العماد والمؤرخين الاخرين، حول توقيت مهاجمة السلطان صلاح الدين لعسقلان فذكرانه، نزل عليها يوم (الأربعاء التاسع والعشرين من جمادي الأولى) المصدر نفسه، ٣٧/٣؛ في حين ذكر ابن الأثير بأنه هاجمها يوم (الرابع والعشرين منه)، الكامل، ٤٢٨/٩؛ بينما أشار ابن كثير، إلى تثبيت الحدث في شهر جمادي الأولى مع إغفال الإشارة إلى اليوم والتاريخ، يُنظر، **البداية والنهاية**، (بيروت :١٩٩١م)، ١٣/ ٢٩٧؛ أما المقريزي، فقال بأنه هاجم عسقلان في شهر جمادي الأولى ولم يحدد التوقيت أو التاريخ أيضًا، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (بيروت: ١٩٩٧م)، ويتفق النويري مع العماد حول تاريخ الهجوم بقوله (فوصل إلى عسقلان في يوم الاربعاء لليلة بقيت من الشهر)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، (بيروت: ٢٠٠٤م)، ٢٩/ ٢٦؛ لكن المرجح هي رواية العماد الأصفهاني كونه هو الأقرب للحدث.
(٥٧) **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٤٢٨.
(٥٨) **النوادر السلطانية**، ص٥٣.
(٥٩) أبو شامة، **الروضتين**، ٢/ ٤٦٢.
(٦٠) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة: ١٩٦٠)، ٥٩/٢.
(٦١) **الداروم**: ويسميها ابن شداد الدارون، وقد اتبعها بالرملة عند الفتح الصلاحي، **النوادر السلطانية**، ص٨٠.
(٦٢) **غزة**: مدينة تقع في أعلى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان (١٢) كم، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ٣٨٨/٣.
(٦٣) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤/.
(٦٤) **البرق الشامي**، ٣/ ٣٧.
(٦٥) **تاريخ مار ميخائيل**، ٣/ ٣٢٩.
(٦٦) وليم الصوري، المصدر السابق، ٢١٧/٤؛ دعكور، المرجع السابق، ص١٦٧.
(٦٧) **البرق الشامي**، ٣٧/٣.
(٦٨) وليم الصوري، المصدر السابق، ٢١٧/٤؛ سالم محمد الحميدة، **الحروب الصليبية**، (بغداد:١٩٩٣م)، ٢٣٧/٣.
(٦٩) حول سيرة أرناط وموقفه من المسلمين، يُنظر: طقوش، المرجع السابق، ص٣٤١-٣٤٤،٣٧٠-٣٧١،٤٦٧-٤٦٩.

(٧٠) **النوادر السلطانية**، ص٥٣.
(٧١) **تاريخ دولة الأكراد**، ص١٠٣.
(٧٢) عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، ٣/ ٣٧-٣٨؛ قاسم عبدة قاسم وعلي السيد علي، **الأيوبيون والمماليك**، (القاهرة: د/ت)، ص٤٣-٤٤.
(٧٣) وليم الصوري، **تاريخ الحروب الصليبية**، ٢١٦/٤.
(٧٤) البرق الشامي، ٣/ ٣٧.
(٧٥) المصدر نفسه، ٣٨/٣.
(٧٦) **تاريخ الحركة الصليبية**، ٤/ ٢١٨.
(٧٧) المصدر نفسه، ٤م ٢١٣-٢١٤، ٢١٩.
(٧٨) المصدرنفسه،٤/ ٢١٨.
(٧٩) البرق الشامي، ٣/ ٣٨.
(٨٠) المصدر نفسه، ٣٨/٣.
(٨١) المصدر نفسه، ٣٨/٣-٤٠.
(٨٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص٩٧؛ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٠٣؛ ابن واصل، المصدر السابق، ٥٩/٢؛ في حين يهمل ستيفن رنسيمان أية إشارة إلى دور أرناط كقيادي للجيوش الصليبية في معركة الرملة. يُنظر: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، (بيروت: ١٩٦٩م)، ٦٧٣/٢؛ وافقه في ذلك حميدة أيضًا، يُنظر: الحروب الصليبية، ٢٣٧/٣.
(٨٣) الرهاوي المجهول، **تاريخ الرهاوي المجهول**، ٢١٧/٢؛ وهذا ما أكد عليه حميدة بدوره، يُنظر: المرجع السابق، ٢٣٧/٣.
(٨٤) حول سيرة تقي الدين عمر، يُنظر: المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**، (النجف:١٩٦٨م)، ٢٩٢/١؛ منذر الحايك، **العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية**، (دمشق:٢٠١١)، ص٩٧-١٠٣؛ سازان حسين إبراهيم، **الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي: دراسة في سيرته وعصره**.-رسالة ماجستير غير منشورة جامعة صلاح الدين – اربيل (اربيل: ١٩٩٤م)، ص ٣٨-٩٥.
(٨٥) **البرق الشامي**، ٣/ ٣٩.
(٨٦) المصدر نفسه، ٤٦/٣.
(٨٧) المصدر نفسه، ٣/ ٤٠.
(٨٨) وليم الصوري، المصدر السابق، ٢١٨/٤.
(٨٩) ميخائيل السرياني، المصدر السابق، ٣/ ٣٣٩؛ وقد وصف أحد الباحثين التوجه الديني للمؤرخين السريان بقوله :"أنهم جميعًا رجال دين غالبًا ما يميلون إلى تفسير الأحداث دينيًا انطلاقًا من قناعات دينية وفق مبدأ الثواب الإلهي وعقابه". يُنظر: مهدي صالح السليفاني، **الأيوبيون في كتابات المؤرخين السريان**، (أربيل:٢٠١٢)، ص٩٧.
(٩٠) **النوادر السلطانية**، ص٥٣.
(٩١) **السلوك**، ١/.
(٩٢) **تاريخ مارميخائيل**، ٣٤٠/٣.
(٩٣) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤/ ٢١٨.
(٩٤) **الطواشية**: على حد قول لينبول أن الكلمة مأخوذة من طاووس وتعبر عن الشخص الجميل، وهو الخصي، وهم المختارون من فئات راقية وأصبح بعضهم قادة كبار في جيش صلاح الدين. يُنظر سعداوي، المرجع السابق، هامش (٤)، ص١١٣؛ مجموعة من المؤلفين، **المعجم الوسيط**، (بيروت :٢٠٠٤م)، ص٥٧٠.
(٩٥) **القراغلامية**: وهم الصبيان أو الشبان من السودان، سعداوي، المرجع السابق، ص١١٣.
(٩٦) **تاريخ الحروب الصليبية**، ٤/ ٢١٩.
(٩٧) **البرق الشامي**، ٤٠/٣.
(٩٨) **الكنانية**: نسبة الى بني كنانة بن خزيمة، وتعود أصولهم إلى اليمن، وهم منتشرون في مناطق مختلفة، ومن أشهر أسرهم في مصر بنو جماعة قضاة القضاة، ويروى أنهم هاجروا إلى مصر بحدود (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م)، يُنظر: ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، (بيروت :٢٠١٠)، ١٨٦/٤؛ القلقشندي، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، تحقيق إبراهيم الحياري، (القاهرة: ١٩٨٢م)، ص١٣٤-١٣٦؛ عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، (بيروت:١٩٩٧م)، ٩٩٦/٣.
(٩٩) **البرق الشامي**، ٣/ ٤١.
(١٠٠) حول ترجمة عيسى الهكاري، يُنظر: ابن شداد، المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧؛ ابن كثير، **طبقات الشافعية**، تحقيق عبدالحفيظ منصور، (بنغازي: ٢٠٠٤م)، ٦٦٦/١.
(١٠١) **البرق الشامي**، ٤١/٣.
(١٠٢) المصدر نفسه، ٣٩/٣.
(١٠٣) **النجابين**: ومفردها (نجاب) وهو الشخص الذي يقوم بجمع لحاء الشجر لأن نجب تدل في اللغة على قشر الشجر وإزالة لحائها، للمزيد يُنظر: جوزيف نسيم يوسف، **العداون الصليبي على مصر**، (بيروت: ١٩٨١)، هامش (٢)، ص١٨٨.
(١٠٤) **البرق الشامي**، ٤٢/٣.
(١٠٥) المصدر نفسه، ٤٣/٣.
(١٠٦) **صلاح الدين وعصره**، ترجمة ممدوح عدوان، (دمشق: ١٩٩٣م)، ص٩٧ – ٩٨.
(١٠٧) لم نعثر له في المصادر على ترجمة، غير أن ياقوت أشار إلى بعض أبيات من شعره ويصفه بشاعر عصري أو معاصر، سبيل المثال، دابق ٢٧١/٢، فامية، ٤١٣/٣.
(١٠٨) **البرق الشامي**، ٥٠/٣.